المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع والاربعين

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩١٦ — الموافق ٣ ذي القعدة سنة ١٣٣٤

شكسبير

كيفية وصوله الى الشهرة

ذكرنا في الجزء السابق ان شكسبير اضطرّ ان يترك المدرسة وعمرهُ اربع عشرة سنة لان اباهُ احتاج اليهِ لكي يساعدهُ بعد ما اصيب بضيق مالي . وقد ذكر بعض معاصريهِ انهُ ساعدهُ فعلاً في بعض الاعمال التي اكتفى بها بعد ان ضاقت دائرة عملهِ لضيق ذات يدهِ اي ذبح الغنم والبقر وبيع الجلود والصوف . وروي انهُ علّم ايضاً في مدرسة صغيرة لانهُ كان عارفاً باللاتينية ودخل مكتب احد المحامين مساعداً لهُ . وسواء صحّت هذه الروايات اولم تصحّ فلا شبهة في انهُ اقام بضع سنوات بعد خروجهِ من المدرسة يتوخّى مختلف الاعمال لكي يكتسب ما يعين بهِ اباهُ كما يفعل كثيرون من الشبان لدى خروجهم من المدرسة . والحاجة تفتق الحيلة ولاسيما اذا عاش المرء في نعمة ثم حُرِمها . والظاهر ان الالعاب التي شاهدها في صباهُ كانت تخطر على بالهِ وهو ميّال اليها بالطبع ومجالها واسع في ستراتفورد في النهر والحقل والغاب فشارك الشبان فيها الى ان صار يدخل حرم الاغنياء ويصطاد ما فيهِ من الغزلان وهو امر محرّم عندهم لكن الذي يقدم عليهِ تقوى فيهِ ملكة اقتحام المخاطر لانهُ ليس سرقةً تعاب على اصحابها بل هو نوع من التسلي فيهِ شيءٌ من الكسب . ومن هؤلاء الاغنياء رجل اسمهُ السر توماس لوسي . ويقال ان هذا الرجل قاضاهُ لاعتدائهِ على الصيد في حرمهِ فنظم شكسبير قصيدةً في هجائهِ فزاد غيظاً وخاف شكسبير تبعة عملهِ فهجر ستراتفورد وجاء لندن . ويقال ان السر توماس لوسي كان من المتحمسين في مذهب البروتستانت وكانت ام شكسبير من الكاثوليك وقد قصد واحد من اقاربها ان يغتال الملكة اليصابات فحوكم وحكم عليهِ بالقتل وان ذلك حمل السر توماس لوسي على الانتقام من شكسبير لما دخل حرمهُ

للعيد فيه فزاد شكسبير شيئاً منهُ لانهُ جعل التعصب وسيلة للانتقام وحفظ العيد واشار الى هذه الحادثة في بعض رواياتهِ مورّياً عنها

وفي تلك الاثناء اقترن بفتاة اسمها حنة هاثواي وكان عمرهُ تسع عشرة سنة لا غير وعمرها سبعاً وعشرين سنة وكانت الصداقة محكمة بين بيت ابيها وبيت ابيهِ وتدلُّ الدلائل كلها على ان زواجهُ الباكر جعلهُ « بركز » ويقلع عن مخالفات الصبا ويوجه كل قواهُ الى ما يصلح شؤونهُ ويرفع مقامهُ بين قومهِ وكانت زوجتهُ من فضليات النساء فعاونتهُ وادارت بيتهُ بالحكمة والسداد حتى أغنتهُ عن الاهتمام بهِ ومكّنتهُ من الانصراف الى عملهِ فانهُ من حين تزوج غيّر سيرهُ السابق وعكف على العمل المنتج. ورزق منها ابنة في السنة الاولى وتوأمين بعد سنتين ابناً وابنة فصار لهُ زوجة وثلاثة اولاد وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ فثقل الحمل عليهِ. والحازم النديب لا يرزح تحت الحمل الثقيل بل يزيد همةً ونشاطاً فنظر الى ما حولهُ ورأى ان لا سبيل لهُ للكسب الكافي الاَّ في العاصمة وفي ملاعبها وكان قد مارس التمثيل في بلدهِ ورأى بعض بوادر الفلاح فيهِ

ولا يُعلم تماماً في اية سنة قصد مدينة لندن لهذه الغاية ولكن يعلم ان ثلاثة « اجواق » من اجواق التمثيل جاءت ستراتفورد سنة ١٥٨٧ وكان في احدها ثلاثة من ابناء بلدهِ فلا يبعد ان يكون قد رافق واحداً منها حينئذٍ الى لندن ومن المحتمل ان يكون قد ذهب الى لندن قبل ذلك وعاد الى بلدهِ مع احد الاجواق التي جاءتها سنة ١٥٨٧. ويروى انهُ لما ذهب الى لندن اولاً لم يكن يباح لهُ ان يشترك في التمثيل بل كان يقف امام باب الملعب يمسك خيول الذين يأتونهُ من جلّة القوم راكبين واستخدم لذلك بعض الاولاد فكانوا يسمون اولاد شكسبير. وليس في هذه الرواية ما يحط من قدرهِ ان صحت بل هي تدلُّ على حبهِ للعمل ومقدرتهِ على تنظيمهِ

والمرجح انهُ عُني حينئذٍ بتعلم الفرنسوية والايطالية لكي يقرأ ما فيهما من التواريخ والقصص التي تساعدهُ في صناعة التمثيل وتأليف الروايات. وكان استاذهُ في هاتين اللغتين رجل اسمهُ جون فلوريو وقد وُجدت قصيدة في مدح فلوريو هذا والمرجح انها من نظم شكسبير اي انهُ مدح فلوريو لعلمهِ وفضلهِ كما ذمَّ السر توماس لومي لجهلهِ وتعصبهِ فاستخدم قريحتهُ في الحالين للتعبير عما في نفسهِ. وقد وجدت نسخة من مقالات مونتانيه الكاتب الفرنسوي المشهور وثبت بالادلة القاطعة انها كانت تخص شكسبير وعليها اسمهُ بخطهِ وهي التي حررها وطبعها فلوريو. وكان فلوريو وشكسبير صديقين للورد سوثهمبتون وكان

هذا الشريف يجلّ قدرها لانهُ كان كريماً جوّاداً ومن انصار الآداب والمعارف واليهِ اهدى شكسبير قصيدتهُ البليغة التي سماها تموز والزهرة (ادونس وڤينس) وقصيدتهُ الاخرى المسماة لوكريس

وتمّم شكسبير للايطالية والفرنسوية لمطالعة كتبها وورواياتها لا ينفي ان يكون قد قرأ بالانكليزية ما تُرجم اليها منهما في ذلك العهد وبنى عليهِ كثيراً من رواياتهِ . وقد كان كثيرون من شركائهِ في التمثيل عارفين باللغة الايطالية ومن الذين سافروا في ايطاليا وشاهدوا التمثيل فيها

وواظب على ممارسة التمثيل والاستعداد لهُ بدرس اللغات والمؤلفات الى ان بلغ سنة ١٥٩٢ درجة يُحسَد عليها . والمرجح انهُ كان حينئذٍ قد انشأ ثلاثاً من رواياتهِ التمثيلية ونجح في اختيار المواضيع التاريخية لما فاق بذلك معاصريهِ وجمع بين التمثيل وانشاء الروايات كما يظهر من طعن احد معاصريهِ عليهِ وهو عالم اسمهُ غرين فانهُ انف من ان قروياً مثل شكسبير يتخرج في مدرسة عالية يزاحمهُ في صناعتهِ ويفوقهُ فيها . لكن غرين هذا لم يسعهُ الاَّ ان شهد لشكسبير بالاجتهاد والمقدرة والنجاح كممثل وكمنشىء . وزاد شكسبير همّة ونشاطاً بعد ذلك فنظم في ست سنوات قصيدتيهِ تموز والزهرة ولوكريس وخمس عشرة رواية من رواياتهِ بعضها من نوع التراجيديا وبعضها من الكوميديا وبعضها من الروايات التاريخية وعُرف حينئذٍ انهُ من نوابغ الشعراء واكابر المؤلفين والممثلين

واتفق ان العصر الذي قام فيهِ كان عصراً تزهو فيهِ القرائح ولا تخمل وقوت . عصر الملكة اليصابات المشهور في تاريخ البلاد الانكليزية بارتقاء كل شيء وطني وبكسر قيود التقاليد والاوهام وحسبانها الد اعداء الانسان وانصراف الناس الى ما يعني شأن وطنهم وبعيد لمذكرى ملوكهم السالفين . فتهيأت للتمثيل الوطني افضل المعدات في الافكار والآراء كما كادت تتهيأ للتمثيل العربي في هذا العصر اذا عرف الممثلون كيف ينتهزون هذه الفرصة التي يراد بها اعادة مجد العرب . وكما تهيأت في اثينا على عهد بركليس

وكانت دور التمثيل قد انشئت في ضواحي لندن واجيز لها رسمياً ونسبت الى عظماء المملكة وتعددت الاجواق التي تمثل فيها . والجوق الذي انتظم شكسبير فيهِ كان اسم رئيسهِ برباج وهو رجل همام اقام داراً خصوصية للتمثيل في لندن نفسها سميت بالتياترو وهي اول مشهد تمثيلي اقيم في لندن ثم اقام داراً ثانية مسقوفة وعليهِ فلما اتى شكسبير لندن كانت دور التمثيل منتشرة فيها وفي ضواحيها وهي مكشوفة كلها الاَّ الدار الاخيرة التي

اقامها برباج في بلاكفريار فانها كانت مسقوفة يُمثَّل فيها زمن المطر . وكان حاكم المدينة وشيوخها وبعض القسوس غير راضين عن التمثيل لكن اذا وضع الشيء في محله فالمقاومة تزيده رسوخاً كما تفعل الرياح بالاشجار فان بيت الملك واشراف المملكة وجمهور الشعب كانوا راضين عن التمثيل راغبين فيه . ثم اشتركت الاجواق كلها واختير منها اثنا عشر ممثلاً سموا ممثلي الملكة وكان اكثرهم من جوق امير لستر فكانوا يمثلون امام الملكة اليصابات وحاشيتها . وتوفي برباج وخلفهُ ابنهُ رتشرد برباج وكان اعلى منهُ همة فاعاد بناء التياترو المسقوف ووسعهُ واشترك مع شكسبير لانهُ رأى براعتهُ في التمثيل وفي انشاء الروايات التمثيلية فنال جانباً كبيراً من الربح . وبني حينئذٍ التياترو الكبير المعروف بتياترو الكرة ودامت روايات شكسبير تمثَّل فيه خمس عشرة سنة في فصلي الصيف والخريف وفي التياترو المسقوف في الشتاء والربيع

ولما آل الملك الى الملك جمس الاول اغدق نعمهُ على ممثلي الملكة فسموا ممثلي الملك

وقد حقق كتَّاب الانكليز اي الروايات مثَّل في هذا التياترو اولاً وايها مُثل في ذاك وكيف توسَّع شكسبير في تأليفها من وقت الى آخر فزاد فيها ونقص منها وكيف انهُ كان يكتفي بالتأليف او بكتابة رؤوس الاقلام وغيرهُ ينسخ ويحرر وينقح مما لا حاجة بنا الى الاطالة فيه لان ليس غرضنا ان نبين ما انشأهُ هو وما يقال ان غيرهُ انشأهُ ونسب اليه وانما غرضنا ان نبين اسباب نجاحه

والظاهر ان التمثيل نفسهُ كان قد ارتقى في عهد شكسبير من حيث انشاء الروايات ومن حيث تمثيلها وكان قد انقسم فرعين كبيرين واختار طريقين مختلفين انواحد اعتمد على ما يسمَّى باللغة التعجمي والامور القديمة كما لو انشأ عندنا منشيء رواية باللغة التي كانت مستعملة في عصر امرىء القيس واكثر فيها من الالفاظ المخضمة والتعابير المقعرة والامثال القديمة لكي يعلو عن مدارك الجمهور والف آخر رواية على اسلوب عصري واكثر فيها من التعابير المألوفة والامثال المأنوسة ولو عامية . وقد اختار بعضهم اسلوباً متوسطاً بين هذين الاسلوبين كما يختار المؤلف منا في انشائهِ ما يسمَّى بالسهل الممتنع فلا تقعروا كالمتفاصحين ولا ابتذلوا كالمتهتكين بل جمعوا بين قصص القدماء ومعانيهم واساليب المحدثين في التعبير الصحيح عنها وطبقوها على عصرهم ورصَّعوا رواياتهم بالشعر النفيس والغناء المطرب وكل ما يلذ للخاصة والعامَّة ويهذب اخلاقهم ويثقف عقولهم ويزيد حبهم لوطنهم . وظهر شكسبير في تلك الاونة فحقق كل ما ينتظر من ذلك الاسلوب بعد ان وطد اركانهُ واعلى منارهُ وربما توسعنا في هذا الموضوع في فرصة أُخرى

غـــون مـــبرو

مقتطف سبتمبر ١٩١٦
امام الصفحة ٢١٣